الجزء الثالث

الفصل التاسع

أخذت حالة رجاء تزداد سوءا.. فحرارتها لا تنخفض وسعالها لا يكـف فمـا وجـد عبـد الرحمن مندوحة من أن يستشير طبيبا.. كان يتردد من قبل حتى يحـتفظ بمـا معـه للأيـام العصيبة التي تمر بالعائلة.. ان الغلاء يبتلع القليل الذي وفـره بجهـد بـصورة لا تحتملهـا أعصابه. ويعود كل يوم باسم الوجه بعد أن يؤمن للعائلة ما يسد رمقها، ويتحدث عما لاقاه من عنت ليشق لنفسه طريقا بين الجموع أمام باب الفرن. ثم يعد ما انفق وما بقي معه من نقـود ويتأوه وهو يغمغم:

- كيف يكون حالنا لو طالت بنا الأزمة؟..

قال لرجاء إثر نوبة بهرت فيها أنفاسها والدمع يجول في عينيه الحنونتين المجهـدتين فيبلـل نظارتيه:

- تهيئي!.. سأذهب بك إلى طبيب مختص ليس بعيدا من هنا.. وأدار ظهره ورفع عن عينيه النظارتين ليمسح منهما الغبش..

وذهبت سلمى معهما.. كان قلبها يطرق بعنف وهي تنظر إلى صدر رجاء وراء الأشـعة.. إن لها بعض الخبرة بما يعنيه الظل الأسود الذي يغشى الرئة..

ووقف عبد الرحمن والطبيب يتهامسان وأدركت سلمى بما ارتسم على وجه عبد الرحمن من قلق أن حياة أختها الحبيبة قد تهددت، وأشاحت بوجهها لتمسح عبرة محرقة..

قال الطبيب مخاطبا رجاء وقد خرجت من وراء الستار بعد أن ارتدت ملابسها:

- سنجري لك عملية بسيطة وستبلين في بضعة أسابيع..

ولم تجب رجاء وراحت تفرك بإصبعها زجاج المكتب بعنف، وقـد عـلا وجههـا الصبوح الشحوب. وفي البيت أخذت سلمى تهون الأمر على والدتها التي جلست تبكي في المطبخ الصغير، وعلى رجاء التي راحت تنشج في سريرها بينمـا وضـع عبـد الرحمن رأسه بين يديه متخذا من درجة الغرفة الصغيرة التي تنام فيها رجاء مقعدا.. وراح يفكر كيف يمكنه أن يدفع خمسين جنيها في تلك الأيام الحالكة.. وكيف تكـون نهاية المطاف لهذه العائلة التي ألقت على كاهله حملا ثقيلا مـن الواجبـات وهتـف بصوت مسموع:

- خمسون جنيها!.. وماذا يبقى لنا لنعيش؟..

وفي اليوم التالي أجريت لرجاء العملية في مستشفى صغير في البلدة وبقيت فيه بضعة أيام حتى تماثل الجرح للشفاء.. وكان أول ما تبادر به سلمى أختها حين زيارتها أن تنظـر إلـى لائحة الحرارة، فيعصر قلبها الهم لأن الحرارة لا تنخفض..

عادت رجاء إلى البيت وبدا واضحا أن العملية لم تنجح، وثارت الشكوك فـي نفـس سـلمى وغمغمت:

- لست أثق بهذا الطبيب.. إن عينيه لا توحيان بالثقة.. إنهما تضيقان كعيني تاجر جشع..

وانصرفت سلمى عن الذهاب إلى "الهوسبيس" لتعتني بأختها ولتكتب.. فهـذه هـي الوسـيلة الوحيدة التي تستطيع أن تحصل بها على المال حين تنفرج الأزمة فتتيح لأختها الحبيبة وسائل الاستشفاء..

لقد تحققت مخاوفها أخيرا.. لم يخطيء حدسها حين راحت ترمق رجاء في ذلك اليوم الذي حدثتها فيه عن نشرها لقصتها الأولى.. كان إعياء الفتاة وخفقان قلبها وتلك الصفرة التي تحيط بفمها لمما يزرع الشكوك التعسة في قلب سلمى.. إنها ترى بعين ثاقبة حزينة كيـف يـضمر إخوتها ليتاح لها فرصة الشفاء، حين يستهلك دواؤها ميزانية الطعام فلا تملك الاّ أن تتأوه دون أن تقوى على وقف التيار الذي يودي بالعائلة نحو الهاوية..

وتحس سلمى أنها هي التي سرقت صحة أختها، وأن عليها واجبا يحثها بجنون لتعمل حتى ترد لها العافية.. إنها تكتب ودموعها تسيل مدرارا على وجنتيها وأختها غافية فـي الـسرير قربها في الغرفة الصغيرة وهزيع القنابل يسمع من حين إلى حين..

عاد خالد يوما من مقر القيادة وكان وجهه بادي الشحوب وشفتاه ترتجفان.. فخفق قلب سـلمى رعبا أن يكون قد حدث لأديب مكروه.. ولكن خالد هدأ روعها حين قال بذهول:

- انني لا أصدق أنني نجوت.. لقد انفجرت قنبلة عند القنطرة في اللحظة التي مررت.. لقد انبطحت وانهار جدار قربي.. كنت أتحسس جسمي وقد خيل إلي أنني أصبت ولكنني لا أحس بالألم لسخونة جراحي..

ولبثت سلمى ساهمة تفكر وقد ارتخى القلم في يدها، وفي الخارج كان يتكتك رشاش مـدفع لا هدف له.. صوت طائر يحصد الأرواح دون أن يتيح فرصة النضال، يصيب الأطفال كما يصيب النساء كما يصيب الشيوخ.. وذكرت العائلة التي أبيدت بجوارهم.. لو انحرفت القذيفة بضعة أمتار لكانت سلمى وأفراد عائلتها أشلاء مبعثرة.. وهمست لنفسها:

هذه الحياة المقدسة أتنتهي إلى مثل هذا المصير الإنساني التعس؟.. كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يحرم القتل الفردي ويبيح هذا القتل الجماعي؟..

ذهب عبد الرحمن إلى الطبيب الذي أجرى العملية لرجاء ليطلب إليه أن يعود الفتاة ويـرى ما يمكن أن يفعل بشأنها، فصحتها في انهيار وكل ما وصفه لها من أدوية لم تقدمها خطوة إلى

الأمام بل كانت تعود بها القهقرى مسرعة مسرفة في السرعة.. وعاد ليقول إن الطبيـب قـد رحل..

وذكرت سلمى طبيبها الأول الدكتور فارس إنه ليس اختصاصيا ولكن بوسعه أن يطمنهم إذا لم يكن في الأمر خطر عاجل يهدد الحياة..

ارتدت سلمى ثيابها وهي تشعر بالتردد والخجل: كيف تطلب إليه أن يتـرك الجرحـى فـي المستشفى ليرى أختها؟..

ومرت سلمى في طريقها بمقر القيادة فرأت نفرا من الجنود عند الباب وبعض المدنيين.. كانوا جميعا يتصايحون.. وهتف أحد المدنيين وقد احتقن وجهه غيظا:

- دعوني أرى القائد.. أقسم أن هذا أثاث منزلي!.

وانتبهت سلمى إلى أن بعض الجنود كانوا ينقلون قطع أثـاث إلـى داخـل مقـر القيـادة فابتسمت.. لقد اختلط الحابل بالنابل فلا يدري أحد أينهب بيتا صديقا أم عدوا!..

وأسرعت سلمى في مشيتها مخترقة الزحام، وكلما اقتربت من المستشفى أحـست بالانقبـاض يأخذ بأنفاسها ولم تدر سببا لهذه الكآبة الخرساء..

سألت عن الطبيب فقيل لها إنه في غرفة الجراحة ولبثت حينا تنتظر، ولكن مكوثه طال وخرج ممرض ساهم الوجه فلمحت سلمى من فرجة الباب بضعة أطباء مكبين فـوق جـريح علـى طاولة العمليات.. وخطر لها أن تمضي بعضا من الوقت في زيارة مرضاها في الغرفة لترى من أبلّ منهم ومن لا يزال..

شاهدت الشاب الحلبي الذي كان قد فقد ساقه.. كان وجهه هو الوحيد الذي تعرفه في الغرفة ولكنه بدا على غير عهده مربدا وهالها شحوبه واهتزاز شفتيه..

لم يلتفت إليها حتى سألته عن حاله.. فانتفض كأنما أيقظته من سبات عميق وفاجأها بقوله:

- سلمى!.. هل علمت؟..

وخفق قلب سلمى للهجة الخطيرة وسألته بجزع:

- بماذا؟..

وهز الشاب رأسه أسفا وقال وهو يمسح دمعة طفرت إلى عينيه:

- جهاد قد ذهب!..

وذهلت سلمى وأحست بتعطل أحاسيسها، وغثيان قلبها كأنما هو موثق بخيط رفيع لن يلبث أن ينقطع ويقف عن الحركة.. لم تقل شيئا.. لم تنبس بحرف..

وأردف الشاب:

- أخبرني الممرض الآن، بأنه لا يزال في غرفة الجراحة..

ولم تقو سلمى على المكوث.. خرجت من الغرفة والفجيعة تخنقها.. كان الممرضون يحملـون طعام الغداء للمرضى وكل شيء يسير كعادته بسرعة ودون مبـالاة.. واصـطدمت بأحـدهم فتوقف وكاد يشتمها لولا أنها سارعت بالاعتذار..

كانت تريد أن تراه.. إنها لا تصدق.. لا يمكن أن تطبق العينان الخضراوان إلى الأبد فـلا حياة فيهما ولا أمل ولا طموح.. ولكنها توقفت عند الباب وقد خشيت انفجار عواطفها.. لماذا يكبر هذا الإنسان في قلبها فجأة فتحس بكل هذه الآلام من أجله؟..

وعادت إلى البيت تكبت نشيج روحها.. لقد أغرق حزنها لجهاد قلقها على أختها وراحت تبكي بحرقة.. وجاءت إليها أمها تواسيها وهي تظن بكاءها خوفا على رجاء..

* * *